القسم الرابع :

فكرة الاتحاد تواجه المصاعب

١ — فكرة الاتحاد الفرنسى قديمة ، عبر عنها جبريل هانوتو بقوله : وحدة الامبراطورية . وحدة الأدارة والتشريع والعمل . وحدة الشعور والارادة الحرة . ليست بالعنف والقوة والفتح ولكن باللين والترغيب تتم الوحدة الفرنسية . وتتميز آراؤه بخطورتها على الأمم المغلوبة ، وأثرها فى نفوس الفرنسيين وسرعة تغلغلها فى أوساطهم

* * *

٢ — جبريل هانوتو من كبار رجال فرنسا ، ظهرت مزاياه وشخصيته فى أعماله وكتابته وأقواله . فإذا هو يؤثر فى جيل بأكمله من الناس كتب كثيراً عن تاريخ فرنسا وأمجادها ، وعرف الناس مالم يعرفوا عنها ، وكتب عن تاريخ الأمة المصرية ، وأشرف على إخراج كتاب على الأسلوب الذى يروقه وللمستشرقين . وهو رجل دائم الانتاج لم يترك عملا من أعمال الخلق إلا كتب فيه ، ولا نشاطا إلا جال

فيه وصال . كان من أولئك الذين يعملون بالمثل اللاتينى القائل[١]:

Homo sum Humani Nihil a me alienum puto

(إنى بشر ويخيل إلى أن لاشىء فيما يتعلق بالإنسان غريب عنى .)

فكان من الطبيعى والضرورى أن يلفت الاستعمار الفرنسى أنظار الشيخ ولذلك كتب فيه وأطال وهو القائل فى كتاب له عنوانه (من أجل الامبراطورية الفرنسية)

هل ترغب فرنسا أن تحيا حياة الأمم الفتية الناهضة ، أم ستلحق بغيرها من الأمم الفانية التى ذهبت ريحها ؟

هل ستفنى كما فنيت بيزنطه ؟ وهل تتبع قرطاجنة وتلقى مصيرها؟

إذا عاشت فرنسا بعظمتها وقوتها وأمجادها وهذا مالا شك فيه (هذا قوله هو) فلتكن متجهة بنشاطها وفكرها وعبقريتها إلى مستعمراتها .

هناك تبرز شخصيتها الخالقة المبدعة وتنمو علائقها مع تلك العائلة التى جمعتها حولها . عائلة المستعمرات الفرنسية .

---

(١) من أظرف ماترك مفكرو العرب فى هذا المعنى قول الجنيد بن محمد الجنيد الزاهد المعروف ما اخرج الله الى الناس علماً وجعل لهم اليه سبيلا الاوجعل لى فيه حظاً و نصيباً

كانت صيحة وبرنامجا قذف بهما هذا الشيخ الفانى فتلقفهما رجال الاستعمار قال هذه الكلمة بعد أن أمضى السنين يدرس ويبحث ويقيد ويسجل .

وخطر هانوتو أنه رجل من رجال الفكر والدهاء ، يجمع بين البحث والعلم والفلسفة ينظر للاستعمار نظرة المحلل الطاغية الذى لا تتطرق الرحمة إلى قلبه .

كان هانوتو داهية من دهاة الفرنسيين تلمس روحه وأنفاسه فى كل جهة ، دون أن تظهر شخصيته ، فهو من أولئك الذين يضعون الخطط لبلادهم مدى سنوات بعيدة ، ويرسمون لحكوماتهم برامج السير مع الأمم التى نكبت بالاستعمار ، وهو مثل من كثير غيره ، ولكن لكثرة ماقرأت عنه أرانى فى حل إذا وضعته فى صف دوفرين السفير البريطانى فى اسطانبول وملنر صاحب المشروع المشهور وكلاهما من دهاة الاستعمار البريطانى الذين وضعوا الخطط الطويلة المدى لبلادهم . ولا نزال نحن بمصر نجاهد للخروج من نطاق تقرير دوفرين من الشئون الدستورية ونكافح للخروج من دائرة ملنر فى الناحية السياسية .

ولا تعجب من تقرير ذلك . فإن الاستعمار الأوربى فى نكباته ومصائبه لا يعد شيئا بجانب مقدرته على التطور ، والظهور بألوان

---

(١) وضع هذا التقرير قواعد الاصلاح والتوجيهات للسياسة البريطانية .

مختلفة ، وهو أكبر نشاط إنسانى قام به البشر منذ الخليقة إلى اليوم بل هو دعامة المدنية الحالية ومظهر قدرتها وتفوقها . بل لا نبالغ إذا قلنا إن مظاهر الترف ومستوى الحياة الراقى لدى جماعات من الأوربيين سوف تنهار أو تهبط بتفكك الروابط بين بلادهم والمستعمرات ، ولذلك نجد الدول الأوربية اليوم أشد تمسكا بهذه الروابط من أى عهد مضى . ونرى أنها تجتهد أن تسالم الحركات القائمة وتساير ها وتخضع لبعض مطالبها ، حتى تحتفظ بما لها من سيطرة على هذه الشعوب .

وهذا الاتجاه هو أخطر ما يواجه الأمم الإسلامية الناشئة لأننا لن نتغلب على الاستعمار إلا إذا فهمنا هذا النوع من العمل الإنسانى[1] ، ولن نصل إلى الخروج عن نطاقه إلا إذا بعث الله لنا من أنفسنا رجالا أقوياء أشداء ، يدفعون عنا ويلاته بعزيمتهم وقوتهم ولهم من الفكر والمضاء فى الحق ما يمكنهم من نقلنا من حالتنا التى نحن فيها ، إلى حالة تقرب من المنطق والمعقول ، أو تكون أقرب إليهما من الحالة التى نعيش فيها اليوم .

وأعود إلى هانوتو فأقول : إنه قد لا يكون أول من نادى بفكرة الاتحاد الفرنسى ، فقد يكون هناك غيره ممن تقدمه وسبقه ولكنى أعجب به من ناحية أنه من فلاسفة ومفكرى الاستعمار ، الذى لمسوا تقدم الدنيا ، وتنبهوا لما قد تأتى به الأيام ، فتقدموا بآراء ومشاريع وأفكار لم تكن بعيدة عن الحقيقة .

---

(١) نسبة الى الانسان لا الى الانسانية .

ثم هو مع دهائه وفكره وبصيرته لم تشغله مظاهر الدنيا والثراء وحب النفوذ كما شغله حب بلاده ، ورغبته فى بقائها تتحكم على ربوع المستعمرات وفى رقاب أهلها ، وهو حينما يكتب وينشر آراءه وسمومه لايهمه شخصه ، وإنما يؤمن بشىء واحد هو بقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها .

فهو يسلم بأن بقاء الجماعات متوقف على الأنظمة [1] التى تربطها وهذه يجب أن توضع على أسس صالحة قوية ، بل إن الأنظمة هى روح الجماعات بقدر صلاحها تصلح الجماعة ، وإذا فسدت أنهار كيان الجماعة .

ولهذا فالامبراطورية فى نظر هؤلاء كائن حى ، يجب أن يعيش وينمو ، وإن قوته مستمدة من الأنظمة التى تربط المستعمرات بالوطن الأم ، وان أنظمة الحكم يجب أن تتطور مع الزمن حتى لايعتورها ويصيبها الجمود وهو علة المجتمعات والداء العضال الذى يصيب الأمبراطوريات ويقضى عليها ، كما قضى على ملك روما وبيزنطة وغيرهما .

فهذه الفلسفة الاستعمارية لم تقف عند حد النظريات ، بل أخذت تحلق فى العلاقات بين الدولة الحاكمة والأمم المغلوبة وتتخذ طريق التجربة والاستقراء فى مختلف النواحى .

---

(1) Institutions

وحقيقة للعالم هى أن السيطرة الأوربية سواء أكانت فرنسية أو غيرها سادت العالم وشعوبه ، واحتلت المكان الأول وفرضت إرادتها أينما حلت إلا فى الجهات التى ساد فيها الإسلام ، فهناك واجهت المصاعب واضطرت أن تسير على حذر وعلى قدر ، ولذلك تلقى الإسلام والعرب أكبر الطعنات فى التاريخ ، وفى سبيل هدمه أعطى ذلك اللون البراق للمدنيات القديمة ، التى انقرضت فى مصر وبابل واشور وفارس ؛ وهذا يفسر لنا تهجم هانوتو وغيره على العرب وطعنه على تاريخهم ووصفه للإسلام بأنه عدو للعلم والمدنية .

لأن الضعف يوجد تسليما وخضوعا . وهذا ما تم فى ربوع أفريقية السوداء ، أما حيث ساد الإسلام فقد وقف المسلمون يقارعون الإستعمار وجهاً لوجه وبقى خطر الدعوة المحمدية ماثلا أمام المستعمرين ، ولذلك كثر أعداؤنا لأننا أقوياء ، والقوى يخلق أعداء لنفسه ، ومن هؤلاء جبريل هانوتو الذى تولى يوما الإمام محمد عبده دفعه عن الإسلام فى كتاب له مشهور ومواقف مشهودة .

ويذكرنى هذا بما قرأته فى مقدمة كتاب الإسلام وسياسة الخلفاء الذى كتبه أنريكو انسباتو (يقف العـــالم الإسلامى فى مواجهة أوربا موزعا بين أملاك الدول المختلفة والقوميات الحديثة يقاوم

---

(١) عبادة المدنيات القديمة أول درس لهدم ما بناه الاسلام .

بشدة وعنف وعناد معتمدا على وحدته الدينية وصبغته العالمية التى تعطى حركاته مظهراً ينفرد به دون غيره).

وعلى هذا رسمت الخطط لاستبعاد الإسلام ما أمكن من المناطق التى قد يسود فيها وفى هذه الناحية بالذات ظهرت قرارات لمؤتمر برازافيل، تتفق مع قرارات حكومة السودان بشأن التضييق على حرية العبادة، ومنع تغلغل الإسلام فى أفريقية الوسطى، وهذا مما يجعل للإسلام قضية سوف نعرض لها يوما لعرضها على الضمير العالمى ولم تكن فرنسا بحاجة إلى إعلان الإتحاد الفرنسى والدعوة إليه، لو كان الأمر متعلقاً بالمستعمرات الإفريقية وحدها أما والأمر متعلق بشمال أفريقية حيث يسود الإسلام لذلك قامت أمامها العقبات وحشدت القوات للتغلب عليه.

وقد كان من أيسر الأمور عليها فرض الثقافة واللغة والدين والاسماء الفرنسية وايهام الجنود السود[1] أن آباءهم من بلاد الغال وانهم فرنسيون دما وروحا وفيهم من يصدق ويتحمس لذلك.

اما والاسلام والعروبة بالمرصاد، هنا يبدو الاتحاد مترددا يسير بخطوات وئيدة ويستنير بآراء هانوتو وغيره، وفى ذلك يقول صاحب كتاب الاسلام وسياسة الخلفاء:

(اصبح للاسلام سياستان: واحدة استعمارية، تتعلق بالمستعمرة

---

(١) كتب شاويش سنقالى بالجيش الفرنسى موضوعا تاريخيا فقال «اياتى من سكان ارض الغال»

وأخرى عالمية تتبعه وتلاحقه فى مشارق الارض ومغاربها ، وهما يلتقيان فى ناحيةواحدة وهى ابعاد الأخطار ماأمكن تلك الأخطار التى يسببها للدول الاوربية وجود ملايين من المسلمين على الأرض يمثلون فى افريقيةخطرا لايستهان به ، نظرا لازديادهم عاما بعدعام)

فى القرون الماضية فقدت فرنسا مستعمراتها ، لأن البحر كان فاصلا والمسافات بعيدة ، واليوم تحاول فرنسا فرض إرادتها على اقطار شاسعة ، فاذا الاسلام أبعد غورا من البحار والمحيطات ، وهى لم تقدر عليه ، لأنه من نور الله ولذلك ستسير شعوب الجزائر وتونس ومراكش نحو التحرر والخلاص ، رغم المصاعب التى تقيمها فرنسا وحكوماتها المختلفة ، واتحادها ووحدتها ، لانها شعوب اسلامية عربية قوية لاتلين .

وها قد استعرضت فرنسا انواع الاستعمار المختلفة ، وبدا لها الاستعمار السوفييتى الروسى بلون خلاب ، وخيل اليها أنه قد قضى نهائيا على نفوذ الاسلام فى ربوع اسيا الوسطى ، وفى هذا خطأ كبير ، فأرادت أن تستعين بأساليبه فى هذه الناحية وفى بعض النواحى الأخرى ، ولذلك ترغب أن تؤسس اتحادها على شكل يشبه اتحاد روسيا .

[وسنعرض بعض قليل للاتحادين فى أول الفصل التالى]